آراء إسلامية معاصرة في فكرة الاختلاف

د.رائد جبار كاظم

الجامعة المستنصرية ـ كلية الآداب ـ قسم الفلسفة

المقدمة

احتل موضوع الاختلاف مساحة كبيرة في حجم الدراسات والكتابات والبحوث الفكرية والثقافية والدينية،عالمياً وعربياً وإسلاميا ،وخاصة بعد ظهور ثقافة العولمة وانتشار وسائل الاتصال والثورة التكنلوجية والمعلوماتية والمعرفية الكبرى ،التي اجتاحت العالم بأجمعه ،والتي تخطت الحدود الجغرافية للدول،محاولة إيجاد وحدة بشرية تنضوي تحت فكر وثقافة واحدة،رغم الاختلاف الجغرافي والجنسي والقومي واللغوي والفكري الموجود في طبيعة الإنسان.

ولسنا معنيون هنا بإعطاء موقف من العولمة أو بيان المواقف الفكرية حولها ،بقدر ما نعنى ببيان اهتمام المفكرين والمثقفين اليوم بفكرة الاختلاف ،هذه الفكرة التي نحن اليوم بأمس الحاجة إلى دراستها ووعيها وتبنيها وبيان فلسفتها،سواء بجانبها الايجابي التي تعني(التنوع والتعدد والتحول والتغير) أو جانبها السلبي الذي يعني (الخلاف وعدم الاتفاق والصراع) كونيا وفكرياً.

والاختلاف كما هو معروف سنة كونية وإلهية من سنن الله تعالى في خلقه،كما دلت عليه الآيات القرآنية الكريمة،والأحاديث الشريفة للرسول الأكرم وأئمة أهل البيت (عليهم الصلاة والسلام أجمعين).

الاختلاف سنة كونية وإرادة إلهية ثابتة في الطبيعة والبشر،ليس لها تبديل ولا تحويل،وقد آمن وعمل بهذه السنة جميع البشر باختلاف أديانهم ولغاتهم وأفكارهم وجنسياتهم .

وهذا الإيمان بهذه الفكرة يثبت من جانب حقيقة الاختلاف كسنة إلهية في كل مظاهر الحياة بما فيها الوجود الإنساني،ومن جانب آخر يدحض الراي القائل أن الاختلاف قيمة سلبية أو وجهاً من وجوه التصدع والتنوع والتغير في لوحة الكون،بل على العكس من ذلك تماماً فان هذا الاختلاف يعد مظهراً من مظاهر الجمال والكمال والإبداع،بعدَه آية من آيات الله تعالى في خلقه،وطريقا معرفياً من طرق معرفته والإيمان به جل جلاله.وطرق الإيمان بالله تعالى متعددة ومختلفة بقدر أنفاس الخلائق كما قال أهل الحكمة والمعرفة،وكما شهد عليه النص المقدس:قال تعالى:

١- { إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يوقنون} سورة يونس / الآية ٦

٢- {ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين} سورة الروم / الآية ٢٢

٣- {ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور}سورة فاطر/الآية ٢٨

٤- {وما كان الناس إلا امة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون} سورة يونس / الآية ١٩

٥- {الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون} سورة الحج / الآية ٦٩

وهناك العديد من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة التي تؤكد على أهمية الاختلاف والعلة والحكمة من التنوع ،على كافة الميادين والأصعدة.
فضلاً عن ذلك فان الفطرة السليمة تؤمن بالاختلاف،ولكنها تحبذ وتدعو إلى الاختلاف المودي إلى التنوع والتعدد ،وتنبذ وتحذر من الاختلاف المؤدي إلى التصادم والصراع والنزاع الباطل المؤدي إلى التفرقة والتشتت والحروب والابتعاد عن سبيل الله،والاضرار بالعباد والبلاد في كل زمان ومكان.
وهناك العديد من المفكرين والمثقفين والباحثين الذين درسوا وحللوا وناقشوا موضوع الاختلاف في كتاباتهم ونظرياتهم الدينية والفكرية،وفي هذا البحث تم انتخاب ثلاثة من المفكرين المسلمين المعاصرين الذين خاضوا في هذا الموضوع وفصلوا القول فيه،ألا وهم كلاً من السادة العلماء محمد حسين الطباطبائي (١٩٠١ـ١٩٨٢م)، ومحمد باقر الصدر(١٩٣٣ ـ١٩٨٠م)، ومحمد باقر الحكيم (١٩٣٩- ٢٠٠٣م).
وقد ناقش هؤلاء العلماء فكرة الاختلاف دينياً من خلال الآيات القرآنية المتعددة الموجودة في القران الكريم،في مؤلفاتهم،وقد وجدوا أن هنالك نوعان من الاختلاف :الأول ايجابي ،والآخر سلبي، وكلاهما سنة من سنن الله في خلقه في الطبيعة والبشر على حد سواء،ولكن يبقى الفرق كبير جداً بين الاختلاف المؤدي للبناء والإصلاح ،والآخر المؤدي إلى الصراع والنزاع،ويرون أن الدين الحق هو السبيل الافضل لتنظيم الإنسان والمجتمع والحد من حالة النزاع والاختلاف السلبي،كون الدين يوازن بين الجانب الذاتي الفردي والجانب الاجتماعي العام،ولا يهمل جانب على حساب الجانب الآخر،بل كلاهما يحقق استقرار الحياة الإنسانية على وجه الأرض.
وفي بحثنا سنتناول الفقرات الآتية:

١ـ الاختلاف لغة.
٢ـ الاختلاف في القرآن الكريم.
٣ـ الاختلاف في أحاديث الرسول الأكرم وأئمة أهل البيت (عليهم الصلاة والسلام أجمعين)
٤ـ آراء محمد حسين الطباطبائي ومحمد باقر الصدر ومحمد باقر الحكيم في الاختلاف.
٥ـ ملاحظات ونتائج وتوصيات.

١ـ الاختلاف لغة :ـ

==========

ورد في المعاجم والقواميس اللغوية ان الخلاف هو المضادة وعدم الاتفاق وعدم المساواة .

كما أن من معاني الاختلاف هو التنوع والتعدد في الاشياء كما عبر عنه في القرآن الكريم في العديد من آياته بـ ((مختلف الوانه)) أي متنوعة ومتعددة .

ومن معاني الاختلاف ايضاً التردد من موضع الى موضع آخر، ومنه الحديث الشريف الذي يقول : من أختلف الى المساجد أصاب إحدى الثمان [١] .

٢ـ الاختلاف في القرآن الكريم :ـ

==========

ورد جذر ومصدر الفعل الثلاثي (خلفَ) في القرآن الكريم (١٢٧) مرة بمعان عدة ، ولكن الذي يهمنا هو لفظ الإختلاف والخلاف موضوع بحثنا .

فقد ورد ذكر (الاختلاف) و (مختلف) (٥٤) مرة في القرآن الكريم .[٢]

فمرة يقصد بالإختلاف (عدم الاتفاق والمخالفة) ومرة يقصد به (التعدد والتنوع)

قال تعالى ((إن في خلق السموات والأرض وأختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الالباب)) [٣] .

((إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقومٍ يتقون)) [٤]

((وهو الذي يحي ويميت ولهُ اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون)) [٥] .

((ومن آياته خلق السموات والأرض وأختلاف السنتكم والوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين)) [٦] .

((ثم يخرج من بطونها شرابٌ مختلف الوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقومٍ يتفكرون)) [٧] .

((ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً الوانها)) [٨] .

((ومن الناس والدواب والانعام مختلفٌ الوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء))[٩] .

((وما ذرأ لكم في الارض مختلفاً الوانه)) [١٠] .

٣ـ موضوع الأختلاف ، في احاديث الرسول الأكرم وأئمة أهل البيت (عليهم السلام)

==========

ورد العديد من الاحاديث الشريفة التي تؤكد على موضوع الاختلاف ، على لسان الرسول الأكرم وأئمة أهل البيت (عليهم الصلاة والسلام)

أ ـ فقد ورد(عن صالح بن حماد بن هلال عن أبي عمير عن عبد المؤمن الأنصاري قال : قلت لأبي عبد الله الصادق (عليه السلام) إن قوماً يروون أن رسول الله (ص) قال : أختلاف أمتي رحمة ، فقال حدقوا . فقلت إن كان أختلافهم رحمة ، فأجتماعهم عذاب؟ قال ليس حيث تذهب وذهبوا ، إنما أراد قول الله عز وجل ((فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون)) [١١] فأمرهم أن ينفروا الى رسول الله (ص) فيتعلموا ثم يرجعوا الى قومهم فيعلموهم ، إنما أراد أختلافهم من البلدان ، لا أختلافاً في دين الله ، إنما الدين واحد .. إنما الدين واحد) [١٢] .

فالحديث الشريف (اختلاف أمتي رحمة) ، لا يراد منه الأختلاف والتشتت والتنوع والفرقة ، وإنما أريد منه الذهاب لطلب العلم والمعرفة ، وقد ذكرنا فيما سبق. إن من معاني الاختلاف ، التردد من موقع الى موقع . إذن فلا يقتصر من الحديث أن الاختلاف ، يعني غير الاتفاق والمخالفة والفرقة ، فلا يعقل أن يكون مثل هذا الاختلاف رحمة في أمة رسول الله (ص) .

ب ـ والحديث الذي ينسب لرسول الله (ص) والذي يرويه ابو هريرة الذي يقول : (أفترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على أثنتين وسبعين فرقة ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة) حديث موضوع كما يقول عبد

الرحمن بدوي ، وزيد على الحديث في حديث آخر مروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي قال عن الثلاث والسبعين فرقة من أمته ، قال كلهم في النار ، إلا فرقة او (ملة) واحدة في الجنة ، قالوا يا رسول الله ومن هي ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابي [١٣] . ويرى بدوي أن هذا الحديث ليس صحيحاً للأسباب الآتية :-

١- أن ذكر هذه الاعداد المحدودة المتوالية : ٧١، ٧٢، ٧٣، أمر مفتعل لا يمكن تصديقه ، فضلاً عن أن يصدر مثله عن النبي .

٢- أنه ليس في وسع النبي أن يتنبأ مقدماً بعدد الفرق التي سيفترق اليها المسلمون.

٣- لا نجد لهذا الحديث ذكراً فيما ورد لنا من مؤلفات من القرن الثاني ، بل ولا الثالث الهجري ، ولو كان صحيحاً لورد في عصر متقدم .

٤- أعطت كل فرقة لختام الحديث الرواية التي تناسبها : فأهل السنة جعلوا الفرقة الناجية هي أهل السنة ، والمعتزلة جعلوها فرقة المعتزلة ، وهكذا.

٥- وقد ظهر التعسف البالغ لدى مؤرخي الفرق في وضعهم فروقاً وأصنافاً داخل التيارات الرئيسية حتى يستطيعوا الوصول الى (٧٣) فرقة ، وفاتهم ان أفتراق المسلمين لم ينته عند عصرهم ، أنه لا بد ستنشأ فرق جديدة باستمرار، مما يجعل حصرهم هذا خطأً تماماً ، إذ لا يحسب حساباً لما سينشأ بعد ذلك من فرق إسلامية جديدة [١٤] .

والحديث عن فرقٍ ناجية ، حديث لا قيمة له ، ووجود مثل هذه الاحاديث يؤدي الى أنتشار ثقافة التكفير والإقصاء والتهميش ، ولو جئنا على ذكر تعدد المذاهب الإسلامية الموجودة على الساحة الإسلامية فإنها تشترك في أمور كثيرة متفق عليها ، وتختلف وتفترق في أمور قليلة ، تتفق في اغلب الأصول وتختلف في عددٍ من الفروع . وبالتالي فوجود فرقة ناجية واحدة ، سنية كانت أو شيعة ، حديث يؤدي الى تفرق المسلمين وتمزقهم وتقاتلهم بدلاً من جمع شتاتهم وتحقيق وحدتهم التي يفرح الرسول والصالحين بها.

ج - وجاء في حديث آخر(عن أبي جعفر عن أبيه (عليهما السلام) قال: قال رسول الله (ص) من تمسك بسنتي في اختلاف أمتي كان له أجر مائة شهيد) [١٥].

ربما هذا الحديث ، كالحديث السابق ، يشجع على موضوع الاختلاف من موضع إلى آخر . ولكن لو فرضنا أن هذين الحديثين يدلان على معنى الأختلاف المؤدي الى التنوع والتعدد في الرؤى والأفكار والفهم والوعي فما الضرر من ذلك ؟ !

(أختلاف أمتي رحمة) و (من تمسك بسنتي في أختلاف أمتي كان له اجر مائة شهيد)ما الضرر في أن نؤمن بأن التنوع والتعدد والأختلاف الفكري والثقافي والحضاري والمعرفي ، كان يدعو له رسول الله (ص) وأهل بيته(ع) . ؟ !

لا ضرر في هذا الفهم والاختلاف ، طالما لا يؤدي الى الفرقة والتكفير والصراع .
وحقيقة الأمر أن رسولنا ربما يدعونا لهذا الفهم الواعي المؤدي الى التقدم الفكري والمعرفي والانساني ، فلولا هذا الأختلاف لما تقدمت العلوم والفنون والآداب والثقافات والافكار.

ولولا الأختلاف لما أستطاعت علوم كعلم الكلام والتفسير والاجتهاد والفلسفة أن تتقدم وتتطور وأن تترك أثرها الكبير على واقع المسيرة العلمية والمعرفية للحضارة العربية والإسلامية والإنسانية .

فقد استطاع علماء ومفكرون أن يتركوا بصماتهم في حقول معرفية وعلمية وفقهية عديدة ، وكان أحد الاسباب الرئيسية والمهمة في هذا البناء هو الأختلاف في وجهات النظر والأفكار والمنهج المتبع لكل مفكر وعالم وفقيه ، المنهج العلمي السليم وليس السقيم ، وأسس علمية رصينة يستند اليها، وليس أسس ذاتية واهية .

د ـ وهناك حديث للأمام الصادق (ع) يؤكد فيه على ضرورة الأختلاف الطبيعي في الخلقه ، وأن هناك علة وفلسفة وحكمة إلهية في التنوع والتعدد والاختلاف في طبيعة وبنية البشر.

قال الامام الصادق (ع) لتلميذه ، المفضل بن عمر الجعفي الكوفي ، إن الله تعالى جعل الناس مختلفين لعلة ، قال الأمام : (أعتبر لم لا يتشابه الناس واحداً بالآخر كما تتشابه الوحوش والطير وغير ذلك ، فاءنك ترى السرب من الظباء والقطا تتشابه حتى لا يفرق بين واحد منهما وبين الأخرى، وترى الناس مختلفة صورهم وخلقهم ، حتى لا يكاد إثنان منهم يجتمعان في صفة واحدة ، والعلة في ذلك أن الناس محتاجون إلى أن يتعارفوا بأعيانهم وحلاهم لما يجري بينهم من المعاملات ، وليس يجري بين البهائم مثل ذلك فيحتاج الى معرفة كل واحد منها بعينه ، ألا ترى أن التشابه في الطير والوحش لا يضرها شيئاً ، وليس كذلك للإنسان ، فانه ربما تشابه التؤام تشابهاً شديداً فتعظم المؤونة على الناس في معاملتها حتى يعطي أحدهما بالآخر ، ويؤخذ احدهما بذنب الآخر ، وقد يحدث مثل هذا في تشابه الاشياء فضلاً عن تشابه الصور، فمن لطف بعباده بهذه الدقائق التي لا تكاد تخطر بالبال حتى وقف بها على الصواب، إلا من وسعت رحمته كل شيء [١٦] .

هـ ـ وجاء ايضاً في حديث آخر عن أبي الحسن الرضا (ع) مبيناً التنوع والأختلاف والتعدد في الخلق . والعلة التي من اجلها تعددت المخلوقات ، قيل له لمَ خلقَ الله عز وجل الخلق على انواع شتى ولم يخلقهم نوعاً واحداً ، فقال لئلا يقع في الاوهام انه عاجز ولا يقع صورة في وهم ملحدٍ إلا وقد خلق الله عز وجل عليها خلقاً ، لئلا يقول قائل هل يقدر الله عز وجل أن يخلق صورة كذا وكذا لأنه لا يقول من ذلك شيئاً إلا وهو موجود في خلقه تبارك وتعالى فيعلم بالنظر الى أنواع خلقه انهُ على كل شيء قدير[١٧].

إذن من خلال الحديثين السابقين . يتبين العلة والحكمة من الاختلاف والتنوع في المخلوقات ، ولماذا لم توجد على صورة وهيئة واحدة ، وتبين أن علة ذلك انها آية

من آيات الله تعالى في خلقه ، ومن هذا الأختلاف يُستدل على خلق الله تعالى . ومن هذا الاختلاف يستدل أيضاً على وحدانية الله تعالى المنظم والمدبر والخالق لكل هذه الموجودات والمخلوقات المتنوعة والمتعددة .وكيلا يتشعب بنا البحث سنعرض في هذا البحث لثلاث من الشخصيات الفكرية الاسلامية المعاصرة ،الذين تطرقوا في كتاباتهم لفكرة الاختلاف .

اولاً: رأي محمد حسين الطباطبائي في الاختلاف :-

==========

تطرق السيد محمد حسين الطباطبائي (١٩٠١- ١٩٨٢م) لموضوع الأختلاف في تفسيره (الميزان في تفسير القرآن) وخاصة عند تفسيره للآيات القرآنية التي ذكرت لفظ الاختلاف ، وذلك في الجزء الثاني عند تفسيره وشرحه للآية ٢١٣ من سورة البقرة حيث توسع في تناول الموضوع تناولاً تحليلياً واجتماعياً ودينياً . [١٨]

يؤكد الطباطبائي مراراً وتكراراً على اهمية موضوع الاختلاف ويرى ان الاختلاف ذو بعدين: احدهما ايجابي والأخر سلبي . وهذا ما سنبينه فيما بعد .
في تفسيره للآية القرآنية ((كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين اوتوه بغياً بينهم فهدى الله الذين امنوا لما اختلفوا فيه من الحق بأذنه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم)) [١٩] يرى الطباطبائي أن (الآية تبين سبب تشريع أصل الدين وتكليف النوع الإنساني به ، وسبب وقوع الاختلاف فيه ببيان : أن الأنسان – وهو نوع مفطور على الاجتماع والتعاون – كان في أول أجتماعه امة واحدة ، ثم ظهر فيه بحسب الفطرة الأختلاف في إقتناء المزايا الحيوية ، فأستدعى ذلك وضع قوانين ترفع الأختلافات الطارئة ، والمشاجرات في لوازم الحياة فألـُبست القوانين الموضوعة لباس الدين ، وشـَّفعت بالتبشير والإنذار ، بالثواب والعقاب ، وأُصلحت بالعبادات المندوبة اليها ببعث النبيين ، وإرسال المرسلين ، ثم اختلفوا في معارف الدين أو أمور المبدأ والمعاد ، فأختل بذلك أمر الوحدة الدينية ، وظهرت الشعوب والأحزاب ، وتبع ذلك الاختلاف في غيره ، ولم يكن هذا الأختلاف الثاني إلا بغياً من الذين اوتوا الكتاب ، وظلماً وعتواً منهم بعد ما تبين لهم أصوله ومعارفه ، وتمت عليهم الحجة ، فالأختلاف اختلافان : اختلاف في أمر الدين مستند الى بغي الباغين دون فطرتهم وغزيرتهم ، وأختلاف في أمر الدنيا ، وهو فطري وسبب

لتشريع الدين، ثم هدى الله سبحانه وتعالى المؤمنين الى الحق المُختلف فيه بأذنه ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم)[٢٠] .

ويرى الطباطبائي ان الدين وحده هو الذي يكفل للإنسانية إنسانيتها ويحقق لها سعادتها وأطمئنانها وكمالها في الدنيا والآخرة ، وهو وحده القادر على اصلاح الفطرة ويعدل قواها المختلفة عند طغيانها ، ويستطيع أزالة الاختلاف وتحقيق الوحدة الفطرية .

والأختلاف عند الطباطبائي سنة طبيعية من سنن الله تعالى ، وأن اختلاف الناس في حاجاتهم ومعارفهم وأذواقهم أمرٌ أيجابي لابد منه ، ولكن الأختلاف في الأمور الشرعية والدينية يحتاج الى منظم ومدبر ومشرع واحد قادر على لم شتات مختلف القناعات والأذواق والأمزجة ، وهذا إنما يكون عن طريق الدين ، ولذلك جاء الانبياء والرسل (عليهم الصلاة والسلام اجمعين) مبشرين بالجنة والمغفرة ومنذرين من النار والعقاب ، فرفع الاختلاف وتحقق الوحدة الشرعية والدينية إنما يكون بالدين وحدة لأنه يلبي نداء الفطرة السليمة[٢١] .

ولما كان لأختلاف عند الطباطبائي على نوعين : أختلاف أيجابي وآخر سلبي،سنفصل القول فيهما .

١- الأختلاف الأيجابي :

وهذا النوع من الأختلاف يُراد منه التعدد والتنوع في الطبيعة البشرية ، جسدية وروحية ، وكذلك اختلاف العادات والتقاليد والسنن والآداب والمقاصد والأعمال النوعية والشخصية في المجتمعات الإنسانية ، وقد أثبتت الدراسات والبحوث الاجتماعية والنفسية والعلمية انه لولا هذا الأختلاف والتنوع لما أستمرت المجتمعات الإنسانية والشعوب بالعيش والتقدم الفكري والحضاري .

وأن هذا النوع من الإختلاف المؤدي الى التعدد والتنوع تم التأكيد عليه والدعوة إليه في آيات القرآن الحكيم وكذلك في الدراسات الاجتماعية والسياسية والعلمية . بل أكد القرآن الكريم أن هذا الأختلاف يعتبر آية من آيات الله تعالى في خلقه وسننه من سننه التكوينية والطبيعية ، ومن خلاله نصل الى معرفة الله تعالى [٢٢] .

قال تعالى ((إن في خلق السموات الأرض وأختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب)) [٢٣] .

((إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقومٍ يتقون)) [٢٤]

((ومن أياته خلق السموات والأرض وأختلاف ألسنتكم وألوانكم)) [٢٥] .

((ومن الناس والدواب والأنعام مُختلفٌ ألوانهُ كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء))[٢٦] .

وهذه الآيات الكريمة وغيرها تؤكد صراحة تأكيداً مطلقاً وتاماً على حتمية الاختلاف وكونية التنوع وشمولية التفاوت الأيجابي المؤدي الى التقدم والرقي المعرفي والفكري والأخلاقي والاجتماعي لدى الانسانية ، خلاف النوع الثاني من الأختلاف الذي يؤدي الى التفرقة والصراع [٢٧] .

٢- الاختلاف السلبي :

هذا النوع من الاختلاف يؤدي الى النزاع والصراع والشقاق بين الأفراد والمجتمعات ، ويتمثل ذلك في الافكار والموضوعات التي تصاغ بخلاف الفطرة الأنسانية السليمة وعكس السنة والشريعة الإلهية . وهذا النوع منه الأختلاف إنما يكون في امر الدين كما جاء في قوله تعالى ((كان الناس امةً واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين)) [٢٨] .

وكذلك قوله تعالى ((ولو شاء ربُك لجعل الناس امةً واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك)) [٢٩] .

يقول الطباطبائي أن الاختلاف المذكور في هذه الآية وسائر الآيات المتعرضة له ، الذامة لأهله ، إنما هو الاختلاف في الحق ، ومخالفة البعض للبعض في الحق والله تعالى يذم هذا النوع من الاختلاف المؤدي الى التفرق والإعراض عن الحق .

قال تعالى ((شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي اوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)) [٣٠] .

حيث عبرَّ تعالى عن الاختلاف بالتفرق ، وكذا قوله تعالى :- ((وإن هذا صراطي مستقيماً فأتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله)) [٣١] .

فأنه تعالى يجعل أهل الحق المتبعين لسبيله وشريعته مختلفين عن أهل التفرق والأختلاف [٣٢] .

وخلاصة رؤية الطباطبائي في الأختلاف تتمثل في انه سنة طبيعته من سنن الله تعالى في كل شيء ، وانه على نوعين: نوع أيجابي يؤدي الى التقدم والرقي ، ونوعٌ آخر سلبي منبوذ يؤدي الى التفرقة والصراع ، وعلاج النوع السلبي إنما في الرجوع الى الدين الذي فيه حكم الله تعالى سواء في العبادات او المعاملات .

ثانياً: رأي محمد باقر الصدر في الأختلاف :

==========

يؤمن السيد محمد باقر الصدر (١٩٣٣ـ ١٩٨٠م) كغيره من العلماء والمفكرين بقيمة موضوع الاختلاف وأهميته ، ويمثل سنة طبيعية وكونية وإلهية سنها الله تعالى لا تبديل لها ولا تحويل.

وأن هناك غاية وحكمة وعلة لأختلاف الناس الى أشكال وألوان وأقوام وقبائل وهو تحقيق قضية ومبدأ التعارف الذي أشار إليه تعالى في قوله :- ((يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم))[٣٣] .

أن الصدر مؤمن بقيمة الأختلاف وثمرة التنوع الذي أوجده الله تعالى في مخلوقاته ، وقد وُصف بأنه نوعٌ ايجابي . أما النوع الآخر السلبي فالصدر يرفضه مطلقاً كما رفضه الطباطبائي من قبل .

ويرى الصدر أن النوع السلبي يؤدي الى التفرق والتمزق وتشتت الناس الى أحزاب وفئات، وأثناء مروره على الآية القرآنية ٢١٣ من سورة البقرة التي ذكرناها سابقاً يرى الصدر أن الناس كانوا يعيشون على فطرة واحدة وكانت هذه الفطرة تمثل الأساس الرئيس لتحقيق وحدة البشرية وأنسجامها وبقائها ، ويسمي الصدر هذه المرحلة من حياة البشرية بمرحلة الوحدة حيث كان الناس كما عبر عز وجل : ((أمةً واحدةً)) ((وما كان الناس إلا أمةً واحدة فأختلفوا)) [٣٤] .

حيث قسم الصدر مراحل حياة الإنسان على الأرض الى ثلاث مراحل هي : [٣٥]

١- مرحلة الحضانة.

٢- مرحلة الوحدة.

٣- مرحلة التشتت والأختلاف .

فمرحلة الوحدة تحققت في نظر الصدر على الأرض عندما ساد الناس الخصائص والسمات الآتية : -

١- انتماء الجماعة البشرية لمحور واحد ، وهو المستُخلف سبحانه وتعالى .

٢- إقامة العلاقات الاجتماعية على أساس العبودية المخلصة لله تعالى .

٣- تجسيد روح الأخوة في العلاقات الاجتماعية وخلافة الامانة التي حملها الإنسان بمخص أرادته وأختياره .[٣٦]

ففترة الأختلاف في رأي الصدر بدأت عندما أبتعد الناس عن هذه السمات التي تمدهم بالفضيلة والمبادىء السامية والفضائل الإنسانية المرتبطة بتعاليم السماء . وعندما تنازل الإنسان عن كل ذلك وسار وفق هواه تغير بذلك محتواه الداخلي نحو الطمع والجشع والأستغلال وقدم مصلحته الشخصية وتجاهل المصلحة الاجتماعية العامة ، عند ذلك ساد الاختلاف والخلاف والنزاع في حياة الناس .

يقول الصدر : (بعد أن مرت على البشرية مدة من الزمن وهي تمارس خلافتها ، من خلال مجتمع موحد ، تحققت نبؤة الملائكة وبدأ الأستغلال والتناقض في المصالح، والتنافس على السيطرة والتملك ، وظهر الفساد وسفك الدماء ، وذلك لأن التجربة الاجتماعية نفسها وممارسة العمل على الأرض ، نمّت خبرات الإفراد ووسعت امكاناتهم ، فبرزت ألوان التفاوت في مواهبهم وقابلياتهم ، ونجم عن هذا التفاوت أختلاف مواضعهم على الساحة الاجتماعية ، وأتاح ذلك فرص الاستغلال لمن حُظي بالموقع الأقوى ، وأنقسم المجتمع بسبب ذلك إلى أقوياء وضعفاء ومتوسطين ، وبالتالي الى مستغلين ومستضعفين ، وفقدت الجماعة البشرية بذلك وحدتها الفطرية)[٣٧] .

وأن السبب الرئيس والاساس في تحول الإنسان من حال صالح الى آخر طالح في نظر الصدر يعود الى تغير المحتوى الداخلي للإنسان متمثلاً في الفكر والإرادة ، فيعطي الصدر لهذا الجانب الأهمية الكبرى في بحوثه ويرى أن اساس جميع مشكلات الإنسان ، حياتياً وأجتماعياً وأقتصادياً وسياسياً مرجعه الى هذا المحتوى

الداخلي (فالعلاقة بين المحتوى الداخلي للإنسان والبناء الفوقي للمجتمع علاقة تبعية، ومسبب بسبب ، وهي تمثل سنة تاريخية) [٣٨] .

والصدر يدعونا لتطهير ذواتنا ومحتوانا الداخلي من أجل أزالة أي نوع من الخلاف والنزاع والفرقة والاستغلال والانانية ، وبالتالي يؤدي ذلك لخلق نوع من الانسجام والتوافق والتوازن الفكري والنفسي داخل الفرد والمجتمع .

وإن إزالة ومواجهة الاختلاف السلبي والحل الوحيد في نظر الصدر لتربية الإنسان وتطهير محتواه الداخلي وتحقيق توازنه انما يكون عن طريق الدين وحده (لأن الدين هو الطاقة الروحية التي تستطيع أن تعوض الإنسان عن لذائذه الموقوته(المؤقتة) التي يتركها في حياته الأرضية في النعيم الدائم وتستطيع أن تدفعه الى التضحية بوجوده) [٣٩] .

قال تعالى : ((فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم)) [٤٠] .

ويرى الصدر أن الدين بدأ مع حياة الإنسان على الأرض ، ولم يترك الله تعالى الإنسان يسير على هواه ، بل سار على الهداية والدين ، قال تعالى : ((قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون))[٤١] .

وتختلف رؤية الصدر عن رؤية الطباطبائي في موضوع وجود الدين ، حيث يرى الطباطبائي أن الدين وجد مع اختلاف الناس وتشتتهم وابتعادهم عن الفطرة السليمة، بدأ الدين على يد الانبياء مبشرين ومنذرين بالثواب والعقاب [٤٢] ، خلاف رؤية الصدر الذي يرى أن الدين بدأ مع هبوط آدم (عليه السلام) الى الارض وليس بعد ذلك . وسنجد آثر الصدر في هذا الموضوع على محمد باقر الحكيم في وجود الدين[٤٣]. ، واختلاف الثاني عن الطباطبائي ايضاً ، ولكن يتفق كلاً من هؤلاء الثلاثة على قيمة وأهمية وضرورة وجود الدين في حياة الناس من اجل سلامة مسيرتهم الحياتية والإنسانية والاجتماعية .

ثالثاً: رأي محمد باقر الحكيم في الأختلاف :-

==========

يقدم السيد محمد باقر الحكيم (١٩٣٩ ـ٢٠٠٣ م) دراسة وافية ومعمقة لموضوع الأختلاف وأثره في حياة الإنسان والمجتمع ، سلباً وايجاباً ، في كتابه القيم (المجتمع الإنساني في القرآن الكريم) [٤٤] .

ويرى الحكيم كما رأى الطباطبائي والصدر من قبل وأستناداً للنص الديني القرآني، أن المجتمع البشري تعرض للأختلاف بعد أن كان يعيش حالة الوحدة الفطرية التي عاشها الإنسان ، وكان الناس حينئذ أمة واحدة وعلى فطرة واحدة ، ((وما كان الناس إلا أمةً واحدة فأختلفوا)) [٤٥] .

ويرى الحكيم أن هناك عاملاً مهماً ورئيسياً أدى الى حدوث الأختلاف في بنية الفرد والمجتمع ، اضافة للعوامل التي ذكرها العلماء والمفكرين والمفسرين ، ألا وهو عامل (الهوى) الذي له أثراً كبيراً في بث التفرقة والتجزئة والصراع والنزاع والطغيان في حياة الناس (إن الهوى هو العامل الأعظم في وجود الاختلاف في المجتمع الإنساني وسببه الرئيس ، وقد كان له دورٌ كبير وتأثير مهم على العناصر الفطرية لوحدة المجتمع ... ومن خلال هذا التأثير حصل الأختلاف في المجتمع الإنساني)[٤٦] .

ويرى الحكيم أن الأختلاف كان في مرحلته الأولى بدائياً ثم تطور بعد ذلك فأصبح أختلافاً معقداً [٤٧] .

ويرى أن الملائكة ادركوا ظاهرة اختلاف الإنسان وفرقته وتشتته ، من خلال تساؤلهم ومخاطبتهم لله تعالى عندما أراد سبحانه خلق آدم (عليه السلام) .

((أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء)) [٤٨] .

وأن الله تعالى لم ينفِ هذا الأمر للملائكة بل أكده ، ولم ينفِ الأختلاف ، بل ذكر أن هناك مصلحة وحكمة إلهية في خلقه لآدم وللجنس البشري كله ، بأن جعله خليفة الله في أرضه ، متبعاً للشريعة ، ومطبقاً للأهداف السماوية المرسومة له [٤٩] .

والحكيم كالطباطبائي والصدر ، يميز بين الجانب الايجابي والجانب السلبي للاختلاف ، ويرى أن ظاهرة الاختلاف ليست بالظاهرة الاعتباطية في حياة الإنسان وفي طبيعة الأشياء ، فهي بالاضافة الى أنها آية من آيات الله ، وسنة من سننه تعالى، للاختلاف أيضاً فلسفة وحكمة إلهية يُستدل بها من القرآن الكريم ، وعلة ذلك هو مبدأ وسنة (الأبتلاء والامتحان) إذ يقول الحكيم : (ويبدو من خلال القرآن الكريم أن هناك سنة إلهية فرضها الله تعالى في حياة الإنسان ، وهي سنة الإبتلاء والامتحان والفتنة ، وقد ربُطت عملية تطور الإنسان وتكامله بهذه السنة الإلهية ... فقانون الأبتلاء مفروض منذ خلق الله السماوات والأرض ، وجعل الله تعالى ما على الأرض زينة لها وللإنسان ... وأتاها الناس ليبتليهم بها ، ويختبرهم في حسن عملهم وليتسابقوا في الخيرات ، ولو شاء لجعلهم أمةً واحدةً دون هذا الابتلاء والأختلاف)[٥٠] .

والدليل على ذلك الأختبار والأبتلاء ما جاء في القرآن الكريم من آيات بينات مبينة علة وفلسفة ذلك قال تعالى ((الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً))[٥١].

((أحسبَ الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون)) [٥٢] .

يرى الحكيم أن العلاج الوحيد الذي يقضي على الهوى في حياة الإنسان، وتقديم المصلحة العامة على المصلحة الشخصية وينظم عملية حياة وفكر وتوازن الفرد والمجتمع ، إنما هو الدين وحده ، وليس الأفكار والنظريات الوضعية البشرية ، لأن ما يطرحه البشر ليس دائماً يؤدي إلى الصواب والوئام والحقيقة ، بل في حالات كثيرة تزيد أفكار البشر ، الناس والمجتمعات شروراً وفساداً وتفرقة ، لانها لاتحيط

بجميع الأمور أحاطة تامة ، كالدين الذي هو شريعة إلهية سماوية يصلح لكل عصر ومصر .

وقد كانت رؤية الحكيم لموضوع الأختلاف قريبة جداً من رؤية الصدر ، وتختلف نوعاً ما عن رؤية الطباطبائي ، وتحديداً في موضوع بداية الدين في حياة الإنسان ، هل جاء مع هبوط آدم (ع) الى الأرض ام جاء بعد حدوث حالة الأختلاف وابتعادهم عن حالة الفطرة السليمة حسب تعبير القرآن الكريم .

ويسجل الحكيم مجموعة من الملاحظات حول ما طرحه الطباطبائي منها: [٥٣]

١- وجود آيات متعددة تشير الى أن الدين كان موجوداً مع الإنسان منذ وجوده على الأرض ، قال تعالى ((قلنا أهبطوا منها جميعاً فأما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون)) [٢] فهذه الأية تشير الى أن وجود الهداية والدين أبتدأ مع الإنسان منذ هبوطه للأرض وبداية حركته الاجتماعية ، لا في مرحلة الاختلاف .

٢- وجود قرائن متعددة في القرآن الكريم تشير الى أن الدين كان قد شرع قبل نوح (ع) .

الملاحظات والنتائج والتوصيات

==========

بعد هذه الجولة البحثية المتواضعة في عالم الاختلاف نصل الى بيان أهم النتائج والتوصيات التي خلص بها بحثنا ومنها :-

١- إن الأختلاف سنة طبيعية وكونية إلهية ثابتة في خلق الله ولا تحويل لها ولا تبديل .

٢- ربط الباحثون من المسلمين فهمهم لفكرة الأختلاف بالدين ، منطلقين في ذلك لبيان حكمة الأختلاف وعلته وفلسفته ، وأنه ليس قيمة سلبية بحتة ، بل هو عامل من عوامل تقدم الشعوب وتطورها .

٣- لا يُفهم من الأختلاف المعنى السلبي المؤدي للصراع والنزاع والخصومة ، بل ينبغي لنا أن نفهم ونعي الدور الايجابي الذي يتركه الأختلاف في الحقول المعرفية والفكرية والثقافية ، والايمان بالثمار النافعة للأختلاف .

٤- ليس بالضرورة أن يكون البشر دائماً على وفاق وأئتلاف وأتفاق في وجهات النظر والأفكار ، فلكل إنسان مجموعة من الآراء والأفكار قد تتفق وقد تختلف مع الآخرين ، مستندة على منهج ومنطق علمي سليم .

٥- الايمان بأن الحقيقة ليست واحدة ، بل وجود حقائق متنوعة ومتعددة ، وينبغي أن يحترم كلاً منا الآخر ، من أجل تحقيق السعادة والأطمئنان لأكبر قدر ممكن من الناس ، كي نلغي ثقافة الإقصاء والإلغاء والتهميش.

٦- الدعوة للتعددية والتنوع على كافة المستويات والأصعدة المبنية على أسس علمية وأخلاقية وإنسانية ، وإنها تمثل عامل قوة من عوامل بناء الفرد والمجتمع ، وليس عاملاً مضعفاً لهما .

٧- الدين الاسلامي لا يحارب الأختلاف ولا يحرمه ، بل يحذر من الأختلاف والخلاف السلبي المؤدي للصراع والنزاع والحروب . ما دامت غاية الإسلام وجوهره التعارف المنطلق من قوله تعالى ((يا أيها الناس إنا خلقناكم من

ذكـر وأنثـى وجعلنـاكم شـعوباً وقبائـل لتعـارفوا إن اكـرمكم عنـد الله اتقـاكم))
سورة الحجرات. الأية (١٣) .

٨- تشـجيع البحـوث والدراسـات فـي فكـرة الاخـتلاف والتعدديـة والتنـوع الـديني والمذهبي والفكري والعلمي والمعرفي ، من أجل خلق نوع من الوعي العـالي لدى المواطن والإنسان يشعره بوجوده وكرامته التي وهبها الله له.

هوامش البحث

(١) ينظر : الخليل بن احمد الفراهيدي . كتاب العين .ج٤. تحقيق د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي . دار الرشيد . العراق .١٩٨٢ . ص ٢٦٥-٢٦٩ ، ومجيد الدين الفيروز آبادي . القاموس المحيط . ج٣. مؤسسة الحلبي . القاهرة . ب.ت. ص١٣٦- ١٣٧ . وينظر أيضا الطاهر احمد الزاوي الطرابلسي . مختار القاموس .ط١ . ١٣٩٨٣هـ - ١٩٦٤م –ص١٩١ .

(٢) ينظر : محمد فؤاد عبد الباقي . المعجم الفهرس لألفاظ القرآن الكريم . منشورات ذوي القربى . ط٢. ١٤٢٣ هـ ، ايران . ص ٣٠٣ – ٣٠٦ .

(٣) سورة آل عمران . الآية ١٩٠.

(٤) سورة يونس . الآية ٦ .

(٥) سورة المؤمنون . الآية ٨٠.

(٦) سورة الروم : الآية ٢٢.

(٧) سورة النحل . الآية ٦٩ .

(٨) سورة فاطر . الآية ٢٧.

(٩) سورة فاطر . الآية ٢٨.

(١٠) سورة النحل . الآية ١١٣ .

(١١) سورة التوبة . الآية ١٢٢.

(١٢) الحر العاملي . وسائل الشيعة . ج ٢٧ . ط ١ . مؤسسة آل البيت . قم . ١٤١٩ هـ . ص ١٤١ .

(١٣) د. عبد الرحمن بدوي . مذاهب الإسلاميين . دار العلم للملايين . بيروت . ١٩٩٧ . ص ٣٣ .

(١٤) بدوي : المصدر نفسه . ص٣٤.

(١٥) محمد باقر المجلسي . بحار الأنوار . ج٢ . ص ٢٦٢ .

(١٦) الإمام الصادق – توحيد المفضل . دار المرتضى . ص ٨٧- ٨٨ .

(١٧) المجلسي . بحار الأنوار ، ج ٥٩ : ص ٥٩- ٦٠ .

(١٨) ينظر : محمد حسين الطباطبائي . الميزان في تفسير القرآن . ج ٢ – ط١ – المحققة مؤسسة دار المجتبى . قم – ايران – ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م – ص ١١٢-١٣٥ .

(١٩) سورة البقرة . الآية ٢١٣.

(٢٠) محمد حسين الطباطبائي- الميزان . ج٢ . ص ١١٢- ١١٣.

(٢١)ينظر : المصدر نفسه . ج ٢ – ص١٢٢- ١٢٣ .

(٢٢) ينظر: الطباطبائي . الميزان . ج٢- ص١١٩-١٢١ .

(٢٣) سورة آل عمران . الآية ١٩ .

(٢٤) سورة يونس . الآية ٦ .

(٢٥) سورة الروم . الآية ٢٢ .

(٢٦) سورة فاطر . الآية ٢٨ .

(٢٧) ينظر : الطباطبائي . ج ٢ . ص ١٢٢- ١٢٣ .

(٢٨) سورة البقرة . الآية ٢١٣.

(٢٩) سورة هود . الآية ١١٨ .

(٣٠) سورة شورى . الآية ١٣.

(٣١) سورة الإنعام . الآية ١٥٣ .

(٣٢) ينظر: الطباطبائي . الميزان . ج ١١. ص ٦٤- ٦٥.

(٣٣) سورة الحجرات . الآية ١٣.

(٣٤) سورة يونس . الآية ١٩ .

(٣٥) ينظر: محمد باقر الصدر . الإسلام يقود الحياة . ط٢ . مطبعة الديواني- العراق ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م . ص ١٨١ وما بعدها والصدر المدرسة القرآنية. دار التعارف . بيروت . ١٤٠٩هـ . ١٩٨٩م . ص ١٦٠. وينظر ايضاً . د. رائد جبار كاظم . الإنسان في الفكر العربي والإسلامي ، محمد باقر الصدر انموذجاً . ط١ . بيت الحكمة . بغداد . العراق. ٢٠٠٩م . ص ٢٣٧-٢٤٨.

(٣٦) الصدر . الإسلام يقود الحياة . ص ١٦٣- ١٦٥ .

(٣٧) الصدر . الإسلام يقود الحياة . ص ١٨٤- ١٨٥ .

(٣٨) الصدر . المدرسة القرآنية . ص ١٠٦ .

(٣٩) الصدر . اقتصادنا . ج١ . تحقيق مكتب الإعلام الإسلامي ط١. مؤسسة بقية الله . النجف – العراق. ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م . ص ٣١٠ .

(٤٠) سورة الروم . الآية ٣٠ .

(٤١) سورة البقرة : الآية ٣٦ .

(٤٢) ينظر : الطباطبائي . الميزان . ج٢ . ص . ١١٣ وما بعدها .

(٤٣) ينظر : محمد باقر الحكيم . المجتمع الإنساني في القرآن الكريم . ط١. المركز الإسلامي المعاصر . بيروت . ٢٠٠٣ . ص ١١٣ وما بعدها .

(٤٤) محمد باقر الحكيم . المجتمع الإنساني في القرآن الكريم . ص ١١١ – ٢٣٥ . -

(٤٥) سورة يونس . الآية ١٩ .

(٤٦) الحكيم . المصدر السابق ص ١٣٧ . وينظر من الكتاب نفسه موضوع الهوى وأثره في حصول الاختلاف ص ١٤٣- ٢٠٥ .

(٤٧) ينظر : المصدر نفسه . ص ١٢٣ .

(٤٨) سورة البقرة . الآية ٣٠ .

(٤٩) ينظر : الحكيم . المصدر نفسه . ص ١٢٢- ١٢٣ .

(٥٠) الحكيم . المصدر نفسه . ص ١٣٣- ١٣٤.

(٥١) سورة الملك . الآية ٢ .

(٥٢) سورة العنكبوت . الآية ٢ .

(٥٣) ينظر : الحكيم . المصدر نفسه . ص ١٢٦- ١٢٧ .